رحلة اوليا جلبي

« في البلاد العربية »

— ٧ —

ويجدر بنا بعد اجتياز حماة ان نصف مافي براريها الشرقية من الأماكن القديمة نخص بالذكر منها سلمية وقصر ابن وردان وخربة الأندرين .

فسلمية قرية كبيرة او بليدة في شرقي حماة الى الجنوب بينهما طريق غير معبدة بعدُ طولها ٣٢ كيلو متراً ويسير قاصدها بعد ان يخرج من حاضر حماة في نجد فيه تلعات متموجة وأودية احدها يدعى العميق تنحدر مياهها في الشتاء نحو العاصي وليس بينها ذو ينابيع واشجار الميلة سوى وادي عين القصارين ووادي الكافات . والسائر يرى على يمينه في غربي العاصي جبل تقسيس « علوه ٦٨٥ متراً » وفي سفحه في منخفض العاصي تختفي قرى الباجية وسريحين وجنان والجرنية وتقسيس وبينها أزوار تروى بالنواعير . ويرى على يساره سلسلة آكام وهضاب من اعضاد جبل العلا بينها وبين الطريق من الضياع الصغيرة التي يملكها سراة حماة ام جرن وصماخ ومباركات وغيرها . وتربة هذه الأرضين تميل الى الاصفرار والبياض كما ذكرت مشرقاً . ومن غريب امر آكام جبل العلا المؤلفة من الحرات السوداء ، الموحشة لتجردها عن الاشجار والأنجم بل كل اخضرار — أن امتدت في بعض منحدراتها وسفوحها الوعرة سلاسل من الأحجار من صنع الأقدمين مما يحمل على الظن بأنهم كانوا يملأون اجوافها بالغراس والكروم . ترى ، هل ضاقت هذه السهول الشاسعة في القرون الخالية بسكانها حتى اضطروا للتعلق باذيال الجبال وكيف كان يتم لهم ذلك وهذه البقاع النقيرة بالامطار لا سبيل لنمو الغراس والكروم الاعذاء فيها ؟ هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد ان يجتاز السائر قرية الكافات يشاهد عن بعد قلعة شميميس تطل من وراء الآكام المحيطة بها ثم بقرية تل الدرة واهل هاتين القريتين اسماعيلية وبضعة طواحين في جنوبيها مرج القريم وبعين ماء كبيرة تدعى عين الزرقاء الى ان يدخل في سهل افيح مترامي الأطراف جثمت فيه سلمية .

وسلمية قاعدة قضاء من اعمال لواء حماة يقطنها زهاء ثمانية آلاف من الاسماعيلية بينهم عدد ضئيل من الغرباء السنيين هم موظفون أوباعة . وفي قضائها اربع نواح : معرشحور وكاسون وعقيربات وسلمية ، يتبع كلاً منها قرى وضياع عديدة تمتد شرقاً الى سفوح جبل البلعاس حيث ينتهي العمران وشمالاً الى ما بعد محطة كوكب على سكة حديد حماة — حلب ، يقطن اكثرها الاسماعيلية والنصيرية واقلها البدو والشركس . وهواء سلمية جاف جيد وتشتد فعل الرياح الغربية فيها لوقوعها في السهل فتثير العجاج وتحول دون نمو اثمار الاشجار ويستخرج ماؤها من الآبار وهو قريب الغور ووسط في عذوبته وقد يصل البرد في الشتاء الى درجة الصفر كما ان حر الصيف قد يبلغ الأربعين على ان جفاف الهواء يخفف وطأتها فلا يشعر بها كما في حماة وكمية الأمطار السنوية قليلة لا تنيف عن الاربعمائة ميليمتر في معظم السنين . ولذا لاتخصب تربتها الرملية الكلسية الصفراء الا اذا جادها الغيث بكثرة ولا تنمو الزروع الصيفية وكذا الكروم في مستهل حياتها الا اذا روبت . وقد اشتهرت سلمية بسعة كرومها وبساتينها واراضيها الاعداء واجل غلالها التي تصدرها الى بندري حمص وحماة على السواء الحنطة والشعير والقرح والبصل وصنف من العنب يدعى البياضي يتأخر نضجه حتى انتهاء الخريف . وقد نمت في السنين الأخيرة زراعة القطن المصري والاميركي واتسعت . وهي تصدر عدداً غير يسير من اطايب الخيول العربية . ويرجع الفضل في عمران سلمية الى القنى القديمة البيزنطية والعربية الممتدة فيها وفي ضواحيها كخيوط الشباك مما لا نظير له في بلاد الشام الا قليلاً في اقضية منبج ودوما والقطيفة . وهذه القنى من العجائب الشاهدة بمقدرة الأقدمين في نقر الصخر الصلد ورسوخهم في علم استنباط المياه وجرها . يحتفر اهل سلمية هذه القنى وقد برعوا في تتبع آثارها وفتح اسرابها وآبارها ويسيلونها . وبوشك اذا دامت هذه العناية ان تصبح كورة سلمية غوطةً مصغرةً وبعود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اليها مجدها الغابر الذي ذكره جغرافيو العرب ونعتوه بكثرة المياه والشجر ووفرة الخصب والرخاء .

قال اليعقوبي من رجال القرن الثالث في كتاب البلدان : وسلمية وهي مدينة في البرية وكان عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابتناها واجرى اليها انهراً واستنبط ارضها حتى زرع فيها الزعفران واهلها من ولد عبدالله بن صالح الهاشمي ومواليهم واخلاط من الناس تجار وزراعين . وقال ياقوت : سلمية بليدة في ناحية البرية من اعمال حماة بينهما مسيرة يومين (كذا) وكانت تعد من اعمال حمص ، اتخذها صالح بن علي بن عبد الله بن عباس منزلاً وبنى هو وولده فيها الأبنية ونزلوها وبها المحاريب السبعة (!) يقال تحتها قبور التابعين ، وفي طريقها الى حمص قبر النعمان بن بشير وينسب اليها بعض اهل العلم اه . وكان يزعجي من ابي الفداء — وسلمية كانت على مقربة من عاصمته — ان يصفها بتفصيل ولكنه رحمه الله اكتفى بقوله : سلمية من اعمال حمص ، بلدة نزهة ومياهها قنى ولها بساتين كثيرة ، قال ابن حوقل وسلمية الغالب على سكانها بنو هاشم وهي على طرف البادية خصبة ، قال في العزيزي ومدينة سلمية على ضفة البرية كثيرة المياه والشجر رخية خصبة اه .

واسم سلمية قديماً (Salamias) — وان لم نعثر على تاريخها في العصور القديمة — الا انها كانت ولاسيما في عهد الروم البيزنطيين عامرةً بدليل العثور على كثير من الآثار والعاديات فيها وضواحيها ينبشها الاهلون من المباني والمدافن القديمة ويبيعونها من غوائها باثمان جيدة . وتاريخها في عهد المسلمين غامض لم يذكره المؤرخون الا الفينة بعد الفينة وعرضاً . والمفهوم من أقوال الجغرافيين التي نقلناها ان سلمية خربت عقيب الفتح الاسلامي لوقوعها في طرف البادية والا فما معنى قولهم « ابتناها عبد الله بن صالح وأجرى اليها أنهراً » وقولهم « وبنى هو وولده فيها الابنية ونزلوها » وما معنى وجود كثير من الأحجار والانقاض البيزنطية في تضاعيف مبانيها العربية القديمة . واذا حسبنا ان هذه هي المرة الاولى التي خربت وعمرت فيها سلمية يثبت معنا ان عمرانها هذا دام وازدهر خلال ثلاثة قرون في عهد سكانها بني عبد الله بن صالح الهاشمي الذين ذكرهم الجغرافيون . واول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ماورد اسمها في التواريخ كان في حديث المعركة التي نشبت في مرج الأخرم الذي صار اسمه في يومنا مرج القريم غربي سلمية بين عبد الله بن علي العباسي اول قائد وعامل عباسي في الشام وزياد بن عبد الله الأموي قائد جيش قنسرين الذي انتقض على العباسيين وكانت الدائرة على زياد فثبتت أقدام العباسيين وقضى على آمال الأمويين في الشام . ويظهر ان بني هاشم الذين أخفقوا مراراً في الوصول الى كرسي الخلافة في عهد الأمويين ثم العباسيين ظلوا في موطنهم سلمية يحاولون ويبثون دعايتهم السياسية . وكان أخصهم في ذلك محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكتوم بن اسماعيل . واسماعيل هذا هو الذي تعتقد الاسماعيلية ان الامامة انتقلت اليه من أبيه جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب . وكان محمد الحبيب يرسل من سلمية الدعاة والمبشرين لمبدإه . وقد استعان اذ ذاك بعبدالله بن ميمون القداح وكان هذا من بقايا مجوس الفرس الساعين لهدم كيان العرب والاسلام تحت ستار الدعوة الاسماعيلية يشتغل بها في اصفهان والأهواز والبصرة فوافى سلمية ملبياً طلب محمد الحبيب وأقام فيها الى مماته مشتغلاً بالدعوة وذلك في منتصف القرن الثالث . ويظهر ان القداح جر وراءه جمعاً من هؤلاء الدعاة فصارت سلمية من ذلك الحين مركزاً لهم ولشيعتهم . منهم ابو عبد الله الشهير بالشيعي نشأ في سلمية وذهب الى المغرب ووفق الى إزالة دولة الأغالبة ثم لحقه عبيد الله محمد وكان ممن نشأ في سلمية ايضاً تلقب بالمهدي وادعى انه من نسل فاطمة وتوصل الى تأسيس الدولة الفاطمية التي انتقلت بعد حين الى مصر ونازعت العباسيين الخلافة . وفي سنة ٢٩٠ جاء القرامطة ويظهر انهم كانوا حانقين على بني هاشم يتقصدون استئصالهم ففتكوا بهم وباهل سلمية كما فتكوا في حماة والمعرة . قال ابن الأثير في حوادث هذه السنة : ثم سار القرمطي الى سلمية فمنعه أهلها ثم صالحهم وأعطاهم الأمان ففتحوا له بابها فبدأ فيها من بني هاشم وكانوا جماعة فقتلهم أجمعين ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب ثم خرج منها وليس بها عين تطرف وسار فباحولها من القرى يسبي ويقتل ويخيف السبيل اه . ولم يذكر ابن الاثير ان كان القرمطي خرب سلمية أم اكتفى بتقتيل سكانها وإخلائها ولم يذكر متى وكيف عاد العمران والسكان . وهل كانت حينما جاءها سيف الدولة بن حمدان في سنة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٣٤٤ آهلة أم خالية . ففي تلك السنة جرت في المروج الممتده شمالي سلمية بين سيف الدولة وأعراب البادية من بني عامر بن صعصعة وعقيل وقشير والعجلان وقد كانوا ثاروا عليه فلحقهم الى تلك المروج وفتك بهم فامتدحه المتنبي بقصيدة جاء فيها :

فاقبلها المروج مسومات ضوامر لا هزال ولا ثيار
تثير على سلمية مسبطراً تناكر تحته دون الشعار

وسكتت التواريخ عن بيان شيعة السكان الذين عمروا سلمية للمرة الثانية بعد حادثة القرامطة أكانوا من الاسماعيلية أم من غيرهم . لأنه لم يرد لهم ذكر مع ساكني قلاع الدعوة اتباع راشد الدين سنان وخلفائه الذين كانوا يجندون الفدائيين لاغتيال ملوك المسلمين وأمرائهم . وعادت التواريخ لذكرها في عهد الأيوبيين ابناء صلاح الدين . قيل ان الملك المعظم عيسى صاحب دمشق جاء في سنة ٦١٩ فحاصر ابن اخته الملك الناصر قليج أرسلان صاحب حماه لاخلاف هذا بوعده في دفع مال مشروط عليه فنهبت جنوده اذ ذاك سلمية لانها من توابع حماه . ولما جاء الملك الكامل صاحب مصر في سنة ٦٢٦ ليخلع الملك الناصر ويجلس مكانه أخاه الملك المظفر حاصر حماه بعث بجيش سلم قيادته الى الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الذي سيرد ذكره في بحث حمص . ولما تم له ما أراد انتزع سلمية من المظفر وسلمها الى شيركوه فانسلخت سلمية من ذلك الحين عن حماه وظلت علة الشحناء بين أبناء الاعمام ملوك حمص وحماه لاسيما بعد أن عمر شيركوه في سنة ٦٢٧ قلعة شميميس وقطع ماء القناة التي كانت تجري من سلمية الى بساتين حماه . ولما جاء التتار بقيادة هولاكو في سنة ٦٥٨ وغازان في سنة ٦٩٩ نالوا من سلمية كغيرها من مدن الشام فانحط شأنها لكنها لم تخرب على ما يظهر بالكلية ويهجرها أهلها للمرة الثالثة الا في منتصف القرن الثامن في عهد المماليك حينما اختلت ادارتهم وازدادت فتن أعراب البادية ووثب بعضهم على بعض . قال في خطط الشام في حوادث سنة ٧٤٨ : «وفي هذه السنة اقتتل سيف الدين ابن فضل امير العرب وأتباعه مع احمد فياض من الأمراء في جمع عظيم قرب سلمية فانكسر سيف ونهبت أمواله وكانت هذه الحروب ضربة قاضية على بادية حماه فطفق البدو ينهبون القرى ويغيرون على حماه والمعرة ففر الفلاحون ودرست القرى اه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وظل هذا الخراب مستمراً خمسة قرون يضرب البدو في ارجائها ويرعون انعامهم بين اطلالها لقاء اتاوات يؤدونها للحكومة العثمانية التي عدت سلمية وما حولها لواءً اتبعته كماه وحمص بايالة طرابلس الشام وما هو بلواء حقيقي . قال كاتب چلبي في جغرافيته «جهان نما» المطبوعة في الاستانة في سنة ١١٤٢ : ولواء سلمية هو في ايامنا في حوزة امراء عشيرة الموالي يأخذونه من آل عثمان اه . وظل اسماعيلية الجبال الغربية في تلك القرون يرنون نحو الشرق في لهفة وحسرة ويترقبون الفرصة ليعودوا ويعمروا سلمية احياءً لمنشأ شيعتهم وتوسعاً في الأرضين وتخلصاً من مثل المذبحة التي ذاقوها من النصيرية في مصياف في سنة ١٨٠٧ م على ما ذكره برو كهارت سائح تلك الايام . ولما استتب الأمن والنظام في الجملة في العقد الأخير من القرن الماضي جاء نفر منهم الى سلمية قبيل سنة ١٢٨٠ او عقيبها واعتصموا باديء ذي بدء في الحصن الذي هدم وبني مكانه دار للحكومة وشرعوا يزرعون حوله ويدرأون عن انفسهم عيث البادية ومازالوا يزدادون بانسلال ابناء جلدتهم من جهات مصياف والقدموس والخوابي وعكار ويمتدون الى الشرق يعمرون القرى الخربة حتى كثر عددهم . ولما استقر امرهم جعلت الحكومة سلمية في غرة قرننا الحالي قاعدة ناحية دعتها (مجيد آباد) ثم جعلتها بعد حين قاعدة قضاء دعي باسمها واتبعته بلواء حماه . وقد زاد عدد الاسماعيلية في السنين الأخيرة في سلمية وغيرها من القرى الآهلة بهم واخصها تل التوت وبري الشرقي والغربي ومفقر الشرقي والغربي وجدوعة وعقارب وسعن وسعين وذلك بانضمام ذويهم النازحين من مواطنهم في جبال النصيرية لأنهم وجدوا الرخاء والخصب في السهول الشرقية الواسعة والعزة التي نالها السلميون من السلطة الافرنسية لقاء تفانيهم في خدمتها خلال ثورة الشام في سنة ١٣٤٥ اه هي اكثر منها في قراهم الغربية الجبلية الضيقة .

ويفترق الاسماعيلية من حيث المذهب الى حجاوية وسويدانية يعتقد الأولون بالوهية آغا خان الزعيم الهندي المعروف في نوادي انكلترة وفرنسا ببذخه وترفه ويؤدون له الزكاة والثانون لا يشاطرون اولئك ذلك الغلو . وكل سكان سلمية وقراها القدماء وسكان القرى المجاورة لقلعة الخوابي من الفريق الأول بينما القدموسيون والمصيافيون من الثاني . والنفور من جراء هذا التباين سائد بين الفئتين . ويفترق الاسماعيلية ايضاً بحسب الطبقات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى عامة وخاصة ، فمن خاصتهم المشايخ ذوو الزعامة الروحية بينهم من هو مولى بجباية اموال الزكاة وايصالها الى الهند . والأمراء ذوو الزعامة الزمنية ، وهـذه الامارة مختصة بافراد قلائل يتوارثونها على انهـا ما برحت مجهولة الارومة والسلسلة . ويغلب على الاسماعيلية طول القامة وعرض لهامة وصحة الجسم ويمتاز نبلاؤهم بزرقة العيون وشقرة الشعور والجمال في نسائهم غـير يسير . وهم في الجملة ذوو حالات غريبـة في تقيتهم وجفوتهم اهل السنة وقسوة عريكتهم وبينهم عصبية قوية ينقادون الى مشايخهم وأمرائهم ويتضامنون في الدفاع عند الطوارئ لذا ترى قراهم ومزارعهم في أمن من عيث البا ية وجشع سراة الحضر . والجهل سائد في جميعهم وعدد متعلميهم قليل جداً أنشئت في السنين الأخيرة بمساعي بعضهم حركة اصلاح نحو الرجوع الى المبادئ الاسلامية لا يعلم مداها .

هذا واكثر دور سلمية قباب مخروطية الشكل من اللبن والتراب كما هو الحال في القرى الممتدة شرقي حمص وحماه وحلب . على انها صارت تبدل بها من عهد قريب دور حجرية جلها من الطراز القروي البسيط لغلبة السذاجة على اصحابها .

« للبحث صلة » وصفي زكريا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net